

## الفصل الثاني

### أبو المحاسن ومعاصره

احتلّ أبو المحاسن<sup>(١)</sup> مراكز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقرئى والعمى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوينى ، ومولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسفى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ؛ وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى ( يونانى ) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن ممالئكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق الممالئك السلطانية . ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، واشترك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة

---

(١) انظر (Wiet : L'Historien Abu-l-Mahasin) فى Bulletin de l'Institut d'Egypte, XII., 2 me fasc., 1930) وكذلك (Popper: Abu-l-mahasin) فى طبعة جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية لكتاب النجوم الزاهرة ( Vol. VII. pp. XII—XV ) .

١٣٩٨ م . وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير في حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات كبيرة ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهي أكبر النيابات في الدولة ، وأسهم في مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام ، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام ، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمة الخيانة العظمى ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركان ، حيث أقام مدة منفيًا . ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية المساكر بالديار المصرية ؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م (١) . وفي تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلا بسيف الشرع ، على يد الخليفة العباسي والقضاة الأربع والأميرين نوروز وشميخ ؛ واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده تاي هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شميخ . وترك تغرى بردى ستة أبناء وأربع بنات ، منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى . وكان أبو المحاسن أصغر أولئك

---

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ( طبعة كاليفورنيا ) ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٥ .

الأولاد والبنات جميعاً إذ توفي والده وهو في الثانية من عمره ، فتولى تربيته قاضي القضاة ناصر الدين بن المديم الحنفي ، وهو زوج أخته الثانية واسمها بريم . ثم توفي ابن المديم ، وتزوجت بريم من قاضي القضاة جلال الدين البلقيني الشافعي ، فأكمل البلقيني تربية الصبي إلى أن كبر وانتشى وترعرع . ثم توفي البلقيني سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر عماليك أبيه ، فتعهدوه بما حاجه من رعاية وعيش وتعليم مدني وحربي .

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوماً وهو في الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان شيخ ، بسد أن علمه بعض من معه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه " خبزاً " ، ومعناه في مصطلح الدولة المماوكية إقطاع من الأرض ؛ وهذه عبارة أبي المحاسن : " فلما جلست عنده وكلمني سألته في ذلك ، ففجز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدري ، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطاني ، فأخذه بيده وناولنيه ، وقال : خذ ، هذا خبز كبير مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعط هذا للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يفشى عليه ، وأعجبه مني ذلك إلى الغاية ، وأسلى بثلاثمائة دينار ، ووعدني بما طلبته وزيادة (١) " .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ( طبعة

كاليفورنيا ) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ في بسطة من العيش ، وليس من الحق قوله في موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، لاستيلاء السلطان فرج فملاً على جميع ما خلفه تغرى بردى من ثروة ومقاع — وإقطاع طبعاً . ذلك أن أوصياءه كفأوا نفقته وتنشئته وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره ، بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقرئ والعميني وابن حجر وابن عمر بن شاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العلي بن عمكة ، والمرعشي وابن الشباع بحلب ، وكثير غيرهم من أملاء القرن الخامس عشر الميلادي بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحب التاريخ من دون العلوم التي درسها وأجيز له فيها ، فلازم المقرئ والعميني أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجيهما ، واتبع أسلوبيهما ونمطيهما في التحصيل والكتابة الغزيرة ، واجتهد في ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهذا فضلاً عن معرفته باللغة التركية (١) .

غير أن تفضيل أبي المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع في الغالب إلى ما استقام للعميني بواسطة من المسكنة السامية التي شغلها في بلاط السلطان برسباي ، إذ طمح هو أيضاً في مثل ذلك لنفسه ،

---

(١) انظر تفصيل هذا كله في مقدمة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ( طبعة القاهرة ) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات المقرئ سنة ١٤٤٧ م ،  
والعيني بعده سنة ١٤٥١ م ، خلا الجو لأبي المحاسن ، ولم يوجد  
من ينازعه في زعامة المؤرخين في عصره . وأشار أبو المحاسن  
نفسه إلى ذلك في غبطة ورضي ، وجسارة مشوبة بفرور ، إذ كتب  
بصدد وفاة العيني : ” ولما انتهينا من الصلاة على قاضي القضاة  
[ العيني ] ، قال لي بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلي : خلالك  
البرّ بيّض واسفر<sup>(١)</sup> . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتي  
إلى منزلي ورقة بخط العيني هذا ، يسألني فيها عن شيء سئل عنه  
في التاريخ من بعض الأعيان ، ويمتدحني الإجابة بكبر سنه  
وتشتت ذهنه ، ثم أبسط في الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد  
صار المول عليك الآن في هذا الشأن ، وأنت فارس ميدانه وأستاذ  
زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة  
في سنة تسع وأربعين<sup>(٢)</sup> وثمانائة ” ، أي قبل وفاة العيني بسنتين .  
ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين في مصر لأبي  
المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دائماً دائماً لسلطان من سلاطين  
المماليك ، يقرأ له التاريخ في أمسياته ، مثلما كان العيني مع السلطان

---

(١) كذا بالأصل ( انظر الحاشية التالية ) ، والجملة دعابة لفظية  
مستمدة من عبارة ” بيض واصفرى ” المشهورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ( طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص  
٣٦٦ ؛ وانظر كذلك أول صفحة من كتاب حوادث الدهور — طبعة  
كاليفورنيا — حاشية ٥ بتلك الصفحة .

برسبای . علی أنه تقلد كثيراً من الوظائف في عهد مختلفة ، وكان له من مولده وتنشيطه ، وقراباته ومصاهراته وصدقاته ، ما جعله من رواد البلاط السلطاني . ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسبای ، حتى صحبه في حلقات الصيد والنزهة والسرحة ؛ وحسنت صلته بالسلطان جقمق ، حتى انتظمت زيارته مجلسه مرة كل أسبوع ، ضمن رجال السلم والأدب ؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زيارته لبلاطه لم تعد المرة أو مرتين في العام كله . ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الروهي ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار . وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباي ، وليكتب في حوادثها بما يدل على أنه لم يلق في بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة — التي صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطاني — أن يكتب كثيراً في التاريخ والتراجم ، وأن يبرع في فنون الفروسية ، من لعب الرمح ورمي النشاب ، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo) ، وأن يحدق علم النغم والضروب والإيقاع ، وأن ينظم الشعر في المربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتي ١٤٢٢ و ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن في حجته الثانية

بوظيفة باش الحمل المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة أمير الحمل ؛ وجرت المادة أن يكون لهذا الأمير رجلمان فى مهيته يسمى أحدهما باش اليمينه ، وثانيهما باش اليسرة ، وكان قايتباى الذى تسلمطنى فيما بعد على اليسرة<sup>(١)</sup> فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فعددتها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته ، وبقي بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها كتابٌ عظيم فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبع مجلدات ضخمة<sup>(٢)</sup> . وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عنقه أبى المحاسن أن يختمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العيني من عقد الجمان<sup>(٣)</sup> . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسمه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو كتاب حافل

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(٢) ذكر أحد المعاصرين أن أبى المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه الأنوار الطاهرة من الكواكب الطاهرة ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ( طبعة كاليفورنيا ) ، ج ٧ ،

بتراجم الأعيان والناهبين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره ؛ ورتبته أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكملة لكتاب الوافي بالوفيات ، لخليل بن أبيك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف في كتاب سماه الدليل الصافي على المنهل الصافي ، وجعل لهذا المختصر مختصراً سماه مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ، فجاء هذا الكتاب الأخير كالميكمل العظيم ، لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتاوه ببيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومنهم على معسر إلى سنة ١٤٣٨ م . ولأبي المحاسن مؤلف آخر يكثر من الإشارة إليه كذلك في كتاب النجوم الزاهرة ، واسمه حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، وهو ذيل لكتاب السارک لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئى ، وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك ، أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م . لكنه خالف المقرئى وغيره قليلاً في طريقته من الإطناب في الحوادث والافتصار في تراجم الوفيات ، فأطال في كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاءه في كتابيه الأولين ، " لتكثر الفائدة من الطرفين " ، على قوله في مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الراى فى التاريخ ، وكتاب البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ؛ وهذان عدا كتب أخرى<sup>(١)</sup> لا صلة لها بصميم التاريخ ، وهى كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب ، وكتاب حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ، وكتاب البشارة فى تكلمة الإشارة ، وكتاب الانقصار للسان التتار ، وهو رسالة فى معانى اللغة التركية ، وكتاب فى الرياضيات والموسيقى ، وكتاب السكر الفاضح<sup>(٢)</sup> والعطر الفائح فى التصوف .

ونقد ابن الصيرفى والسخاوى مؤلفات أبى المحاسن فى عنف وشدة ، ورماء كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارى فى عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد . ومن ذلك قول السخاوى ، ونصه : ” وبالجملة فقد كان [ أبو المحاسن ] حسن العشرة ، تام العقل — إلا فى دعواه فهو حق — . . . لطيف المذاكرة ، حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ،

---

(١) جميع الكتب المتقدمة موجودة ، كاملة أو ناقصة ، مطبوعة أو مخطوطة ، فى مختلف مكاتب العالم ، وما عداها فنير مقطوع بوجوده حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الإسكوريال ،

لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تنكث فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع ساوك أغراضه ، وتحاشيه مجاهرة مَن أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه<sup>(١)</sup> تركي ! . ورد ابن الصيرفي هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان " كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له ويصير له به مزية " .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجلى من كتب أبي المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتجري في كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين في المصنوع الوسطى بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبي المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم في كتبه مقياساً لحلقه ، وذكرنا قول ابن إياس فيه ، وهو الذي خلفه في زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقاً أنه كان " رئيساً حشماً فاضلاً ... له اشتغال بالعلم ... ، مشغولاً بكتابة التاريخ<sup>(٢)</sup> " .

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته في  
يونيه سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصري ،  
وأنفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي  
والسخاوي ، وكل منهما صاحب ترجمة طويلة لأبي المحاسن تم  
عن كثير مما قام بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيره ،  
وحسد أحياناً وسوء دشيلة .

وكان ابن الصيرفي أكبر الرجلين عُمرًا ، وإن بدا أقلهما شهرة  
وتراثًا في التأليف ، واسمه نور الدين علي بن داود الصيرفي الخطيب  
الجوهري الإسرائيلي الحنفي . وعُرف بين معاصريه باسم ابن  
الصيرفي — وابن داود كذلك . وكان مولده بالقاهرة سنة  
١٤١٦ م ، أي اثنتي عشرة سنة قبل ميلاد السخاوي ، وأبوه  
داود صيرفي بدواوين السولة المملوكية في عهد سلطان لم تميزه  
المراجع التي بأيدينا حتى الآن ، وتوفي داود هذا سنة ١٤٤٩ م .

نشأ ابن الصيرفي في كنف والده ، وتعلم تعلمًا يسيرًا ، كما يفهم  
من ترجمة السخاوي<sup>(١)</sup> له ، مع أنه تقلد لابن حجر العسقلاني ،

---

(١) انفراد السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩)

بترجمة واقية لابن الصيرفي ، وليس في غيره من المراجع التي أعلمها ، مثل ابن  
لباس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨) ومؤلفات  
ابن الصيرفي التي لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف كثيرًا إلى  
ما كتبه السخاوي .

ولازم مجلسه في الإملاء وغيره ، وتمرّص الركوب في خدمته ،  
حتى استثناه لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوي —  
وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر — كان ممن ضاق بذلك  
العلاقة بين ابن الصيرفي وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة  
جامع السلطان برقوق ، وذهاب ابن حجر للصلاة خلفه هناك ،  
والداجات ترجمته لابن الصيرفي مماودة غمطاً وسفورية  
مارس ابن الصيرفي التجارة بعد وفاة أبيه ، مع بقاءه على  
الاشتغال بالمعلم ، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق  
وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهريين —  
ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهري — ، وابتنى بعض الدور بحكر الشامي  
بالقاهرة وأسكنها بالأجرة . ثم آل أمره يوماً إلى أن نفذ غالب  
ما عنده واحتاج ، فولاه قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة  
الحنفي نائباً للحكم ( قاضياً ) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق  
بذلك ، فنسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبي المحاسن  
والسخاوي في التاريخ وغيره . ومن ثمّ كان اشتغاله بالتأليف  
في التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وفسدت علاقته بالسخاوي  
وأبي المحاسن من حين ذاك ، فشئى السخاوي بسيرته عند الناس ،  
وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتباً من مكتبته ، بل أخفى عنه  
تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يقل من عزم ابن  
الصيرفي ، أو بصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب نزهة النفوس

والأبدان في تواريخ الزمان ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م ، واختتمه عند ١٤٤٦ م ، وهي السنة الثامنة من عهد السلطان جقمق ؛ ثم كتاب أنباء الحصر في أبناء المعصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ؛ ثم كتاب سيرة الأشرف قايتباي ، وهو غير مقطوع بوجوده ، وأمله المخطوط الكائن بالمتحف البريطاني بلندن لغير مؤلف معروف . ولابن الصيرفي كذلك كتاب في السيرة النبوية سماه الجوهرية ، ورآه أبو المحاسن وأنها مطالمة وقرّظه وهو راغم بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من المقرّظين ، على قول ابن الصيرفي نفسه .

غير أن السخاوي لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفي ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه ، لزامته إياه في صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : ” إنه نسب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخنا ، لكونه لا تميز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقيم ، بحيث ... صار الفقهاء والقضاة به مثلة .. ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنى بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور . . . . . (١) ” .

ولابن إياس في ترجمته القصيرة لابن الصيرفي نقدٌ مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال في اللفظ ، ونصه أن ابن الصيرفي

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

” كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راءٍ ، وله في تاريخه خطبات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه .. وكان لا يخلو من فضيلة (١) “

على أن ابن الصيرفي لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوى نفسه في ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه وصريديه من أعلام عصره ، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التي توجد مقتضية مختصرة في كتب الآخرين ، كأبي المحاسن والسخاوى وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفي في يونيو سنة ١٤٩٤ م .

أما السخاوى واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوى ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، فولده سنة ١٤٢٧ م ، بحارة بهاء الدين لصنق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الفزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لمامهم بتقواه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وتصوفه<sup>(١)</sup> ولذا كان معظم شيوخ السخاوى ومما يه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر الذى اختص به وأخيه ، سبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوى ابن حجر أشد الملازمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوى أن يمدّ هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها ، عدداً دقيقاً فى ترجمته لنفسه فى كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، وهى ترجمة ضافية فى ثلاثين صفحة كاملة ، وليس فى كتابه كاه ترجمة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والإفاضة " والتمدح " بأقوال المعجبين به من المعاصرين<sup>(٢)</sup>

وعرف السخاوى عند بعض " أناس مخصوصين " باسم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جدّه وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماماً ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيماً عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتعجيب والنقد ، وربما هم فى غير واحد

---

(١) ترجم السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ،

ج ٧ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ ) لسكل من جدّه وأبيه ترجمة تفيض حناناً وبراً ، وهى العملة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصددّها .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٢ — ٣٢ .

من مؤلفاته بالقصور وضمف الرواية والبيات . ومع هذا فالسخاوى نشأ وعاش متمتماً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فصار يرسل إليه خادمه ليطلبه بوقت ظهوره في بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : " إنه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده ، وتحريره وانتقاده (١) " وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه في حفل عرس السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد في توظيفه بوظائف تدريس الحديث التي أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفي ابن حجر سنة ١٤٤٩ م ، فمزم السخاوى على الرحيل عن مصر إلى الشام ، ليساو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلاً دراسة الحديث ، وطنق يتنقل في سبيل ذلك بين المدن الكبرى كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها . واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث بالقاهرة ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ هـ . فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وزار المدينة . وتقل السخاوى ١٤٥٣ م بعد ذلك بين مصر

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣٠ .

والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ،  
وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحياناً  
لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على  
التأليف في الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه القبلي  
على عهد السلطان خشقدم ، ويشبك هذا هو صاحب الدوادارية  
الكبرى زمن السلطان قايتباي . وكان يشبك أعظم شخصية  
في الدولة المملوكية مدة حكم قايتباي ، ويمده فوق وظيفته  
الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف  
وأمالك ومدارس ومحسوبة ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على  
إحدى وظائف تدريس الحديث التي تمب قبلاً في الحصول على  
مثلها أيما تمب ، وسميه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئاً  
للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر  
صلته بذلك الأمير الكبير في عبارة كلها كبرياء وترفح ، وأن يقرر  
أن يشبك سأله في البيت عند السلطان خشقدم ليلتين في  
الأسبوع ، ليقرأ له نخباً من التاريخ ، كما فعل العميني مع السلطان  
برسباي ، فتوصل وأبي ، وأن يشبك التمس منه أن يحضر إليه  
ليقرأ له تصانيفه ، فامتنع كذلك<sup>(١)</sup> . وهذا نص عبارة السخاوى في

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١٠ .

ترجمته لهذا الأمير البندول المحسن : ” وقد تكرر اجتماعي به ، وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب في تحصيل أشياء من تصانيفي ، وأسمع بعض أولاده مني بحضرة [كتاب] المسلسل [في الحديث] ، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدر (١) ،“

وعني السخاوي بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى في أربع صفحات من ترجمته لنفسه (٢) ، ومنها في التاريخ كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك ، في أربعة أجزاء (٣) ، وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقرئ المشهور ، وكان تأليفه إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدوايرية الكبرى ، أي أن السخاوي كتبه زمن السلطان قايتباي . ويظهر أن السخاوي شُفِّف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ،

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٧٧٢ — ٢٧٤ .

(٢) انظر السخاوي ( الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩ ) حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهي جديرة يبحث الباحثين واستقصاء الراغبين في إحياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم .

(٣) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدى من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهي سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجري ، على قول السخاوي نفسه ، وهذا فضلاً عن إشارات المعاصرين بصدده .

إذ ألف كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة  
لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكتب الذيل المتناهي تكملة لتأليف  
ابن حجر في تفضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة  
لكتاب الجزري . أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ  
مكة للفاسي ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لؤلف لم يذكره ، ولعله  
الفاسي كذلك .

وللسخاوي في التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ  
لمن ذم التاريخ ، وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل  
(historiography) عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية في تاريخ  
التاريخ وفضله بين العاوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول .  
وله في التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر  
والدرر في ترجمة ابن حجر ، والقول النبوي في ترجمة ابن عربي ،  
وقبر ذلك كثير في مختلف العاوم والفروع ، ولا سيما الحديث .

على أنه لا بد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن  
التاسع ، إذ هو منجم زاخر في اثني عشر جزءاً مطبوعاً ، للنساء  
المسلمات منها جزء بتمامه . وهذا الكتاب نخر مؤلفات السخاوي  
ولا ريب ، برغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير  
الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أبسل نفسه للعاصرين وتجرع  
اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه " ألف تاريخاً فيه

كثير من المساوي في حق الناس (١) ، وقول قريبه السيوطي  
مستفهماً مستنكراً : ” ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه  
أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر  
المساوي وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً نلى قدر أغراضه  
والأعراض هي الأغراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه  
وإدامه ، واستفرق في أكلها أوقات قطره وسيامه ، ولم يفرق  
بين جليل وحقير . . . (٢) “ واشتدت الخسومة بين السيوطي  
والسخاوي مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما  
صاحبه بأنواع التهم ، حتى طال بينهما الموت ، إذ توفي السخاوي  
بالمدينة سنة ١٤٩٧ م ، وبقي السيوطي بعده تسع سنين .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ،

ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطي : السكاوي على السخاوي . ( مخطوطة بدار السكتب

الملكية المصرية ، رقم ١٥١٠ أدب ) .